الفصل الخامس

التفكير الفلسفى

مر النظر العقلى الإنسانى منذ أن وجد على ظهر الأرض بمراحل فكرية متميزة هى :

١ - فى المرحلة البدائية انشغل الإنسان بتحصيل ضروريات الحياة واتقاء الأخطار التى تهدد بقاءه واستمرار نسله ، وكان تفكيره قاصراً ، والكون يبدو فى نظره فوضى لا ضابط لها ، فاعتقد الإنسان أن لكل مظهر من مظاهر الطبيعة روحاً تديره وأن هذه الأرواح ذات نزوات مثل الإنسان وهى السبب لما فى الكون من فوضى ظاهرة ، وأن السبيل لاسترضاء هذه الأرواح هى فى التوسل والدعاء وتقديم القرابين مما ينتجه من ثمار يجمعها أو صيد يحصل عليه ، وما زال هذا النوع من التفكير يغلب على تفكير الأميين من الناس مع تعديل بسيط أدخلته عليه الأديان .

٢ - بعد أن ضمن الإنسان ضرورات الحياة نتيجة لاطمئنانه إلى وجود نظام فى الطبيعة بنى عليه حياته الإنتاجية بتربية الحيوان والزراعة ، فقد آمن بوجود نظام ثابت للكون تطور بفضله إيمانه بالأرواح إلى الإيمان بعدد من الآلهة نسبت إليهم صفات الأرواح السابقة . وأخذ عدد الآلهة يتناقص بزيادة إدراك الإنسان للنظام الكونى والتوسع السياسى حتى وصل إلى الوحدانية ، ووحد بين المجتمع والطبيعة وجعل الإنسان مسئولا عن أعماله الاجتماعية أمام الإله فى الآخرة .

وما زال هذا النوع من التفكير يغلب على تفكير معظم الناس الذين يرجعون كل شىء إلى الدين ، ويفسرون به كل الظواهر الطبيعية والاجتماعية .

٣ — بعد أن ارتقى العقل الإنسانى نتيجة للحياة الاجتماعية والتفاعل بين المجتمعات وإدراك الإنسان التمايز بين حياة الطبيعة وحياة المجتمع، نزع الإنسان إلى دراسة الكون دراسة عقلية بحتة تستبعد الأفكار الخرافية والدينية وتعتمد على الارتباط المنطقى وحده الذى يستدعى النظر إلى الأمور نظرة كلية مجردة عن المادة فنشأ التفكير الفلسفى على يد أقلية من المثقفين ثقافة عالية شاملة وذوى الذكاء الحاد الذين تهمهم بالدرجة الأولى مشاكل الكون والمجتمع والإنسان فتستغرق تفكيرهم ، وتجعلهم فى حالة قلق من أجل الوصول إلى حل يزيل توترهم النفسى ويعيد التوازن والاستقرار إلى تفكيرهم الذى لم يقنع بكل التفسيرات السابقة .

وما زال هذا التفكير يغلب على عقول أقلية راقية فى كل مجتمع يدفعها القلق المنطقى إلى التفكير العميق فى المشاكل الكبرى التى تتحدى العقل الإنسانى بغموضها ودقتها .

٤ — أدت الفلسفة دورها فى تخليص العقل الإنسانى من كثير من الأوهام ورواسب حياة ما قبل الفلسفة ، ورسمت له منهج التفكير والبحث ، وخلصت الحياة الاجتماعية من آثار الجمع بين الطبيعة والمجتمع ووحدت الإنسانية وحدة عقلية ، وجعلت التفكير الحر أسمى غايات الإنسان ، ولكنها ، بسبب طبيعتها الكليه المجردة ، إرتفعت عن الواقع بجهلته ، فنشأت مرحلة جديدة من التفكير تقوم على الارتباط بالواقع ومحاولة معرفته فى ظروفه الطبيعية كما تحدث أمام الحواس ، فكان التفكير العلمى الذى بدأ من الفلسفة ، ولكنه اتخذ له طريقاً آخر غير طريقها النظرى التأملى .

وهذا التفكير هو الذى يغلب على تفكير العلماء الذين يقومون بأبحاثهم فى المجالات التخصصية المحدودة بغية كشف العلاقات الدائمة بين ظواهرها .

د — ولكن التفكير العلمى لم يغن عن التفكير الفلسفى . لهذا نشأت مرحلة جديدة من التفكير تحاول التوفيق بين الفلسفة والعلم تتمثل فى المذاهب الفلسفية

التى تقوم على نظريات أو اكتشافات علمية مثل الفلسفة التطورية والذرية والوضعية والاجتماعية والنفسية .

وذلك أمر طبيعى عندما تقوم مرحلة جديدة من التفكير ، فإنه يحدث بينها وبين المرحلة السابقة عليها فكر مركب منهما ، مثلما حدث عندما ساد التفكير الدينى ، فنشأت بعده مرحلة جمعت بينه وبين التفكير الخرافى الذى سبقه. كما يتضح فيما دخل على الأديان من خرافات مازالت آثارها باقية فى الأديان . ومثلما حدث عندما ساد التفكير الفلسفى ، فنشأت بعده مرحلة جمعت بينه وبين التفكير الدينى سادت طوال العصور الوسطى .

وفى كل مرحلة كان يحدث صراع عنيف بين الأسلوبين من التفكير حتى يسود أكثرهما اتفاقاً مع تطور الثقافة الاجتماعية ، ثم يتم التصالح بين القديم والجديد فى أسلوب تفكيرى جديد ، مايلبث أن يصبح قديماً عندما تبدأ موجة فكرية جديدة ، إذ يكون قد أدى وظيفته وانتهى دوره .

سمات التفكير الفلسفى :

يتميز التفكير الفلسفى بالسمات الآتية :

(ا) العقلية :

فقد نشأ التفكير الفلسفى ، أصلا ، لاستخدام التأمل العقلى منهجاً لتحصيل المعرفة ويمتاز هـــذا المنهج بالاعتماد على البديهيات والمصادرات والمسلمات ، والمبادىء العقلية ، وعلى الالتزام بقواعد منطقية فى استنتاج المجهول من المعلوم .

والبديهية Axiom قضية بينة بنفسها وليست فى حاجة لأن يبرهن عليها ، ولا يمكن ذلك مثل الكل أكبر من الجزء .

والمصادرة Postulate قضية ليست بينة بنفسها ولا يمكن أن يبرهن عليها ولكنها لاتؤدى إلى نتائج متناقضة ومن أمثلتها مصادرة إقليدس التى تقول « يمكن مد أى مستقيم من جهتيه إمتداداً متصلا » ومثل « من نقطة يمكن أن يمد خط مواز لمستقيم ولا يمكن أن يمد غير خط واحد » .

والمسلمة Presupposition قضية يبدأ بها الاستدلال مع التسليم بصحتها .

والمبادىء العقلية مثل مبدأ الذاتية ومبدأ عدم التناقض ومبدأ الثالث المرفوع ومبدأ العلة الكافية .

والعقل كما يقول الفلاسفة « هو قوة فى الإنسان تدرك طوائف من المعارف اللامادية ، فهو : أولا يدرك ماهيات الماديات أى كنهها لا ظاهرها .

وهو ثانياً . يدرك معانى عامة كالوجود والجوهر والعرض والعلية والمعلولية والغاية والوسيلة والخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق والباطل .

وهو ثالثاً : يدرك علاقات أو نسباً كثيرة كالعلاقة بين أجزاء الشىء الواحد ، وعلاقات الأشياء فيما بينها ، وعلاقات المعانى التى ذكرناها الآن ، والعدد والترتيب. فهذه المدركات غير حادثة فلا ينفذ الحس إليها بحال ، وليست العلاقة أو النسبة موجوداً واقعياً ، وإنما الموجود طرفاها . فإدراكها إدراك معنى غير مادى .

ويدرك العقل ، رابعاً : مبادىء عامة فى كل علم علم ، وفى العلوم إجمالا ، وليس فى التجربة شىء عام .

ويدرك، خامساً : وجود موجودات غير مادية كالنفس والله وخصائصها الذاتية ، وذلك بالاستدلال بالمحسوس على المعقول ، أو بالمعلول البادى للحواس على العلة الخفية عليها .

وسادسا : وبالاستدلال أيضاً يؤلف الفنون والعلوم مما لامثيل له عند الحيوان الأعجم مع حصوله على المعرفة الحسية ، (١) .

وإذا كان الفلاسفة ينقسمون إلى ماديين وعقليين : حيث يرى الأولون أن لاوجود إلا للمادة وأن الإحساس هو مصدر المعرفة ، ويرى الآخرون وجود العقل وأنه مصدر المعرفة الصحيحة ، فإن كلا الفريقين يستغل العقل فى إثبات رأيه ، فإنه لم يصل طرف منهم إلى اتجاهه الفلسفى ومايترتب عليه من نتائج إلا بالتفكير العقلى الذى هو قوام الفلسفة ومبدؤها ومنهجها .

---

(١) يوسف كرم : العقل والوجود ص ٤ .

(ب) الحرية :

لا يمكن للفلسفة أن تؤدى وظيفتها فى هداية الفكر الإنسانى وتخليصه من الأوهام إلا بالتحرر من كل تأثيرات سابقة أياً كان مصدرها ، فالتفكير الفلسفى يتطلب الانطلاق الحر دون قيود سوى المبادىء العقلية والقوانين المنطقية التى لاتقيده وإنما ترشده إلى الطريق السليم نحو الحقيقة .

لهذا فإن التحرر المطلوب للفلسفة هو تحرر عقلى يخلص التفكير من قيود التربية والعرف والمألوف التى كبلته وسجنته بين أسوار الواقع الذى يعيش فيه المفكر .

فشروط الحقيقة ليست هى قدم الأفكار ولا سيطرتها على الجميع ، وإنما هى اتفاقها مع العقل المجرد المتحرر من كل تبعية ووصاية .

ذلك أن التفكير العقلى يتأثر كثيراً بالظروف الاجتماعية التى تحيط به منذ أن نشأ فيها وكونت اتجاهه التفكيرى الغالب . والتحرر العقلى لا يعنى انفصال الإنسان عن المجتمع ، وإنما أن يميز المفكر بين الثقافة الاجتماعية المرحلية التى تطبع التفكير بطابع جزئى يتعصب لمجتمع معين أو لمرحلة من مراحل تطور المجتمع الإنسانى ، وأن ينظر المفكر إلى المجتمع فى كليته وفى إنسانيته الشاملة الممتدة فى الزمان . ويعتبر تلك النظرة هى مقياس الحكم والسلوك . وبذلك يتحرر من التعصب والتحيز والأفكار القبلية الضيقة .

(جـ) التجريد :

ويقصد بذلك أن التفكير الفلسفى لا يدرس الأشياء المادية ، وإنما هو يدرس الأفكار بمعنى أنه لا يدرس الماديات لذاتها وإنما يجردها من ماديتها ولا يستبقى منها سوى تصوراتها الذهنية أى ما يكونه الذهن عنها من أفكار هى عبارة عن حقيقتها الثابتة وعلاقاتها بغيرها وما تحمله تلك الحقيقة وهذه العلاقات من معانى عقلية تسهم فى تفسير الوجود .

وعندما تدرس الفلسفة موضوعاً فإنها تختار جانبه الخالص والمبادىء العقلية التى يرجع إليها وتحاول أن تراه فى إطار الوجود والمعرفة والحياة الإنسانية مجردة إياه من كل ظواهر مادية أو علاقات مكانية أو زمانية محسوسة ، ومن هنا جاءت صعوبة الفلسفة التى تجابه الدارس المبتدىء الذى يكون قد اعتاد تناول الموضوعات المادية التى جعلتها الحياة اليومية أقرب إلى إحساسه وأيسر على فهمه ونادراً ما يرتفع الإنسان عنها لكى يفكر فى أمور مجردة لا ترتبط بواقع معين ولا بتجربة حسية فردية .

(د) التساؤل :

فالفيلسوف إنسان طلعة شديد الذكاء ، يستثير انتباهه ما يجده حوله من مسائل يقف أمامها الفكر حائراً . ولا يملك الا أن يسأل نفسه عن سر كل ما لا يجد له تفسيراً مقنعاً .

وليس من الضرورى أن يكون الأمر المثير للتساؤل غريباً أو شاذاً ، فقد يكون هو المألوف الذى يعتبره سائر الناس أمراً طبيعياً ، إذ أن الفيلسوف قد يجد فيه ما يجعله يسأل نفسه : لماذا كان هذا الأمر مألوفاً ؟ ولماذا لا يكون عكسه هو الطبيعى ؟ وما هى التناقضات المنطقية التى ينطوى عليها ؟

فالتفكير الفلسفى يبتدىء بالسؤال (لماذا ؟) تعبيراً عن رغبة الفيلسوف ولهفته الشديدة نحو معرفة الحقيقة ، وانطلاقا من اعتقاده بأن الحقيقة موجودة ، إذ لا يقوم للوجود ولا للمعرفة قيام بدونها ، ويؤمن الفيلسوف بوجوب البحث عن الحقيقة ، والسير فى هذا البحث مهما لقى من صعوبة وواجه من غموض . بل ان المشقة التى يصادفها من صعوبة وغموض البحث الفلسفى تغريه بمواصلة التفكير حتى يكشف سر الحقيقة ، لأن تلك هى رسالته وقدره .

ويذكر تاريخ الفلسفة بعض الفلاسفة الذين شككوا فى وجود الحقيقة ، ولكنهم وهم فى ذروة شكهم ، إنما كانوا يثبتون وجودها ، لأن أفكارهم لها أو شكهم فيها إنما يقوم على حقائق يوقنون بصحتها ولولا هذا اليقين لما استدلوا بها فهى إذن حقائق موجودة وهى جزء من الحقيقة الكلية .

وهذه الحقيقة الكلية الضرورية المطلقة هى مطلب الفلسفة وهى التى يوجهون اليها شكهم لأنها صعبة المنال حقاً ، ولكن ليس معنى ذلك أنها غير موجودة ، لأن صعوبتها تكمن فى طريقة الوصول إليها لا فى وجودها نفسه ، ووجود الحقائق الجزئية دليل على وجود الحقيقة الكلية .

وكذلك ينشأ التساؤل من إدراك الفيلسوف أن الكون معقول ، أى أنه قابل للمعرفة ، لأنه ذو نظام دقيق محكم يتفق مع قوانين العقل التى هى نظامه الفكرى ، إذ أن العقل جزء من هذا الكون ونظامه .

ومن هنا يجد الفيلسوف انجذاباً كبيراً بين العقل والنظام الكونى ، حيث يميل العقل إلى الكشف عن هذا النظام المحكم للإجابة عن التساؤلات الخالدة (لماذا .. ولماذا ؟) لماذا كان هذا الكون ؟

ولماذا كان على هذه الصورة بالذات ؟

وما هى صلة الإنسان به ؟

ولماذا كانت هذه الصلة تختلف عن صلات الظواهر الأخرى به ؟

ولماذا كان للحياة البشرية قيم عليا ؟

ومعنى ذلك أن التساؤل الفلسفى لا يقتصر على المسائل الكبرى التى تمثل النظام الكونى وحده . وإنما يتناول الحياة البشرية أيضاً وما تقوم عليه من مبادىء وما تتجه إليه من غايات ، علاوة على أن الإجابة عن المسائل الكبرى الكونية تنعكس أيضا على النظرة إلى الحياة الإنسانية .

فنحن لا نستطيع أن نحدد نوع المعاملة التى ينبغى على الإنسان أن يعامل بها أفراد المجتمع سواء كان هذا المجتمع الأسرة أو الحى أو الوطن أو حتى الإنسانية فى المواقف المختلفة ، إلا إذا أجبنا عن التساؤل عن معنى الخير والشر والعدل والجزاء ، ووفقا لهذه الإجابة نستطيع أن نحدد نوع الجزاء الذى يجب أن يلقاه كل نوع من أنواع المعاملة .

وكذلك نوع النظام السياسى الذى يتأثر به كل فرد من الأفراد يأتى بعد

الإجابة عن التساؤل الخاص بأى النظم أصلح لحياة الإنسان ، وهل النظم دائمة أو موقوتة وهل هى تنبع من الحياة الإنسانية ذاتها أم من الطبيعة أو من قوى متعالية تفرضها على الإنسان لأنها أدرى بمصلحته . وما هى قيمة الحياة الإنسانية بين القيم المختلفة وماصلة الإنسان بالإنسان وماصلته بالحكومة . وما هى السلطة وأصلها ، ولماذا تكون هناك سلطة تعطى لإنسان الحق فى أن يتحكم فى إنسان ويسلبه حريته أو يحد منها . وما هى الحرية وما مداها وقيمتها فى كل نظام سياسى .

وكذلك الغرض من النظام الاقتصادى هو الذى يحدد نوع النظام الذى يفضله المجتمع . وتنعكس الإجابة عن هـــذا التساؤل على حياة كل فرد وعلى نصيبه من السعادة أو الشقاء ، الجهل والتعليم ،الصحة والمرض والمركز الاجتماعى عموماً . فالتساؤل الفلسفى يبـــدأ من التأمل فى الحياة اليومية لكى يصل إلى المبادىء والغايات التى تعبر عن حكمة الوجود وموقف الإنسان منها . كما ترتد هذه المبادىء والغايات من وجودها العقلى المجرد إلى حياة الإنسان الواقعية لكى تؤثر فيها وتصبغها بصبغتها عن طريق ما يترتب عليها من تطبيقات عملية . وعن طريق مايلقنه المجتمع للفرد من أفكار وعقائد مستوحاة من هذه المبادىء والغايات لكى يتمثلها فى صورة ثقافة اجتماعية تنسق تفكيره وسلوكه وتطبعه بطابع اجتماعى معين .

فهناك تأثير متبادل بين الحياة وبين المبادىء والغايات الفلسفية العليا وتفاعل مستمر بين النظر والعمل ، أو بتعبير آخر هناك تجاوب بين الفلسفة والحياة لا يمكن أن ينفصم ما دام للإنسان عقل يفكر ويتطلع إلى الأكمل والأفضل ويتساءل دائما عما وراء الجزئيات من كليات ووراء المحسوس من معقول .

ويشمل تأثير هذا التجاوب الناس الذين يصنعون الحياة والفلاسفة الذين يتصورون المبادىء إجابة عن تساؤلهم عما يتعدى العقل الإنسانى من مسائل الإنسان والكون .

(هـ) الشك والحيرة :

فالفلسفة لا تأخذ ما ألفه الناس مأخذ التسليم والاقتناع ، ولكنها ترى فى هذا المألوف كثيراً مما يدعو إلى الحيرة والشك فى صحته ، وبذلك يشعر المفكر تفكيراً فلسفياً بالقلق وعدم الاطمئنان إلى هذا المألوف ، ولا يستريح إلى أمر لأن الناس أجمعوا على الأخذ به ، ولا لأنه متوارث منذ أجيال . فليست هذه كلها من صفات الحقيقة ، وإنما الحقيقة هى ما يتفق مع العقل ويقر الإنسان الذكى المحايد حيالها بالاقتناع التام والراحة ، ولا يبقى لديه أقـــل إثارة من الشك .

وليس هذا الشك حالة مرضية ولا مقصوداً لذاته ، وإنما هو شعور طبيعى ينشأ من عدم الاطمئنان إلى الخطأ لأنه قبيح أو التناقض أو مخالفة التفكير المنطقى السليم ، ومن هنا كان الشك وسيلة دافعة إلى التحقق من صحة الموضوع ، فإذا ثبتت صحته عاد إليه الفيلسوف بأدلة الصواب والاقتناع ، وإلا بحث عما يصححه ويطمئن إلى يقينه . فالحق هو مطلب الفلسفة الوحيد وهو الحاكم المسيطر على عقل الفيلسوف وتفكيره ، لا يستطيع الهرب منه ولا المغالطة فيه ولا إنكاره إن عرفه ، والفيلسوف فى هذا العمل يمثل الإنسانية ، وينوب عنها فى سعيها نحو الحق ، ورغبتها الشديدة فى الوصول إليه ، لأن تجاربها الكثيرة علمتها أن الحق هو غاية المعرفة وهو أقصر طريق إلى السلام والخير والجمال والتقدم ، حتى أصبح الحق لديها مطلوبا لذاته .

والشك يؤدى إلى التردد فى قبول الأفكار الشائعة ، ثم إلى نقدها وتمحيصها للكشف عما فيها من تناقض أو خطأ أو التواء فى التفكير . ويصاحب الشك شعور بالقلق والحيرة وعدم الاستقرار النفسى مما يدفع الفيلسوف إلى إمعان التفكير إلتماساً للحقيقة حتى يبلغ الإتزان الداخلى والرضاء الذاتى عن سلامة البناء المعرفى واتفاق الفكر مع نفسه .

ولهذا كان من ضيق الأفق اتهام المفكرين الأحرار بتهمة خطيرة مثل الخيانة أو الكفر أو الإلحاد ، أو العمالة لحساب الأعداء ، لأنهم شكوا فى مألوف الناس

بغية الوصول إلى الحق ، فإن شكهم هذا ليس إلا منهجا نحو اليقين يبتغون به خير الإنسانية عن طريق الكشف عن الحقيقة التى هى كل مبتغاهم .

وقديما كان الناس فى بلاد اليونان يشيرون إلى سقراط بأنه ملحد ، لأنه شك فى صحة عقيدة اليونانيين الدينية والسياسية ، وقد حاكمه اليونانيون بتهمة إفساد الشباب وإنكار آلهة اليونان وأعدموه ، وصار هذا الحادث سبة فى تاريخ الشعب اليونانى .

(و) عمق التفكير :

نتيجة لثورة الشك فى عقل الفيلسوف حيال أى موضوع لا يقتنع بصحته ، فإنه يرفض الأخذ بالأفكار الخاطئة أو السطحية ، ويبدأ فى ممارسة عملية تفكير وتمعن عميقة قد تتخذ صورة حوار عقلى بين الفيلسوف ونفسه ، يمثل أحدهما الرأى الشائع ، ويمثل الآخر عقل الفيلسوف ، وتفرع الحجة بالحجة ، حتى يبين وجه الصواب .

وقد يتخذ التفكير شكل استدلال منطق ، تعرض فيه قضية ، ثم ما يترتب عليها من نتائج وتقارن النتائج ببعضها من ناحية أكثرها ملاءمة لتفسير جميع جوانب المشكلة تفسيراً صحيحاً متفقاً مع قوانين الفكر ، حتى يهتدى الفيلسوف إلى النتيجه الصادقة .

والتفكير عملية عقلية نشيطة تسعف الإنسان بالحلول اللازمة فى المواقف التى يواجهها وينشط كثيرا كلما كانت المشكلة جديدة أو أكثر تعقيداً ، حيث يقوم العقل فيها بنشاط متصل ، فيتمثل المفكر المشكلة فى ذهنه فى شكل تصورات ورموز ، ويحاول الإحاطة بجميع ظروفها عن طريق معرفة كل ما يتصل بها وتقليبها على جميع جوانبها وإدراك العلاقات التى تربط عناصر المشكلة ببعضها . والعلاقات التى تربط المشكلة بجملتها بسائر المشاكل ذات الصلة بها .

والتفكير لدى الفيلسوف هو عمله الرئيسى ، فهو دائم التفكير فى المشكلات الكبرى ، مثابر على الكشف عما فيها من غموض ، ناذر حياته للحق ، حتى لقد

يستغرقه التفكير فينشغل به عن بعض ما يكلف الناس به من ضروريات الحياة وكمالياتها .

ويستعين العقل أثناء عملية التفكير بكل الخبرات التى اكتسبها سواء من الفكر ذاته أم من الواقع ، ويضم المتشابه منها فى علاقة خاصة ، ويعزل الشاذ ، أو الذى يتخذ له مسلكا خاصا غير مسلك سائر العلاقات فى جانب خاص .

ويصل العقل فى آخر هذه المجموعة المترابطة من سلاسل الحقائق إلى الرابطة التى تربطها جميعها ، وعندئذ يكتشف السر الجامع لكل هذا الخليط من المتنافرات. ويعرف أن التنافر الظاهر يخفى وراءه الشر الكامن فى القانون المتناسق الذى يفسر حقيقة المشكلة ، ويضعها فى مكانها الطبيعى من المشكلات الأخرى فى إطار المعرفة الإنسانية المتكاملة .

ورغم النجاح الذى أحرزه التفكير الإنسانى فى شتى مجالات الحياة ، وما كفل للإنسان من معرفة وأمن وقوة ، فإن الفلاسفة لم يكتفوا بهذا النجاح دليلا على صواب التفكير وصدقه ، فإن ما كشفه الإنسان بتفكيره قليل من كثير قد غمض عليه ، ولذلك عكف الفلاسفة على دراسة التفكير نفسه وتحليل عناصره لمعرفة قدر مافيه من الحق ، ومدى ما يمكن أن يصل إليه من اليقين، فنشأ من ذلك فرع من الفلسفة يسمى نظرية المعرفة .

وبجانب ذلك قام علم النفس ، وهو ابن من أبناء الفلسفة ، بدراسة التفكير بوصفه نشاطا إنسانيا له دوافعه ووظيفته ، وله صلته بأنواع النشاط الإنسانى الأخرى من جسمية ونفسية واجتماعية ، كما قام علم النفس بتحليل عملية التفكير ومظاهرها فى الحيوان والطفل والإنسان الراشد ومعرفة الأعضاء الجسمية التى تسهم فيها ، وتحديد المراكز العصبية التى تخصصت فى هذه العملية التى تبلغ ذروتها فى التفكير الفلسفى .

(ز) الشمول :

يختلف التفكير الفلسفى عن التفكير العادى للحياة اليومية فى أن هذا الأخير

يهتم بأحداث الحياة وجزئياتها، وينشغل بها حيناً حتى تمر فينساها ولا يعود يذكر منها إلا بعض آثارها ، وقد يربط بينها وبين حوادث متشابهة ظاهرياً ويعبر عن ذلك بحكمة أو مثل من الأمثال التي تشتهر بين الناس ، ويتبادلونها اقتناعا بأنها تمثل تجربة حقيقية .

أما التفكير الفلسفي فيرتفع عن أحداث الحياة اليومية للفرد العادى ، وينظر إلى الإنسانية كوحدة كلية شاملة ممتدة فى الزمان والمكان ، ويجاهد فى التماس المبادىء العامة التى تحكم مسيرة الإنسانية وسلوكها وتفكيرها منقباً عن جميع الظروف التى تتعلق بالمشكلة التى يتعمقها وباحثاً عن جميع العلاقات التى تربطها ببعضها لكى تكون نظرته شاملة محيطة بكل العناصر المؤثرة فى تكوين المشكلة وبذلك يمكن الارتفاع على الوقائع الجزئية التى تحيط بالإنسان فتمنعه عن رؤية الكل المؤتلف ، فيستطيع الإنسان بهذا الارتفاع الذى يسميه البعض تعالياً ويتهم الفلسفة من أجله بأنها متعالية على الواقع ، ولم يدركوا أن هذه النظرة الفلسفية من أعلى تساعد على شمول الرؤية ، وتعين على صياغة النظريات العامة التى تفسر الوجود وتوضح مغزى الأحداث اليومية من خريطة الحياة البشرية .

وقد لوحظ أن ثمة تفاعلا بين الأحداث الجزئية وبين التفسير العام الشامل للنظم الكونية والإنسانية ، كلاهما يفيد الآخر ويستفيد منه ، ولكن بينما تهتم العلوم بأحداث الحياة اليومية كجزئيات أو ظواهر إنسانية لها قيمتها الذاتية التى ينبغى ملاحظتها ومعرفة علاقاتها الثابتة بعضها ببعض .

فإن الفلسفة لا تنظر إلى هذه الجزئيات لذاتها ، وإنما لما وراءها من نظام عقلى شامل يحكمها طبقاً لمبادىء وقوانين ضرورية ، ومهمة الفيلسوف هى الكشف عن هذه القوانين ، بغية وضع التفسير الملائم لقيمة الحياة البشرية ، وأهميتها بالنسبة للوجود ، وقيمة الوجود نفسه كنظام كلى .

(ح) الاستمرار :

لما كان التفكير الفلسفى يعتمد على العقل وحده ، والعقل لا يتوقف عن التفكير، فقد تميز البحث الفلسفى بامتداد التفكير، إذ أن النتيجة النهائية لأى موضوع

قد لا تتم بموقف نهائى ، لأن هذا الموقف قد يكون مجرد مرحلة وصل إليها العقل فى هذه الفترة ، التى توافقها ثقافة اجتماعية معينة ، ولو أن العقل واصل التفكير بمجهود فلاسفة آخرين لبلغ نتيجة أصدق .

وما يساعد التفكير الفلسفى على أن يتميز بامتداد التفكير هو طبيعة العقل نفسه التى تفتح له دائماً آفاقاً جديدة كلما استكشف أفقا منها ، مما جعل التفكير الفلسفى طموحاً لا يقنع بما يصل إليه ، بل يغريه كل نجاح الى الاجتهاد فى ارتياد عوالم جديدة ، خاصة وأن الغموض يحيط بالإنسان من كل جانب، وأن ما كشفه الإنسان من معرفة حتى الآن لا يساوى شيئاً بالنسبة الى ما أمامه مما يتطلع الى معرفته ، وصدق سقراط إذ قال ، كل ما استطعت أن أعـــرفه هو أننى لا أعرف شيئاً » .

وما يساعد الفلسفة أيضاً على مواصلة التفكير هو جو الحرية الذى اشترطه البحث الفلسفى وضحى فى سبيله تضحيات غالية ، فالفلسفة لا تزدهر إلا حيث تحترم حرية التفكير ، وتتاج لكل مفكر الحرية التامة فى التعبير عن فكره .

ولكن التفكير الفلسفى يتأثر بالظروف الاجتماعية التى يعانيها الناس . وينعكس هذا التأثر فى الأفكار الفلسفية وفى موضوعاتها . فالاحتلال الأجنبى يؤدى بالبحث الفلسفى الى دراسة الأخلاق لتفسير سبب الهزيمة . والتزمت يؤدى إلى تسخير الفلسفة لخدمة الأغراض الرجعية ، والاستبداد ينزع بالفلسفة نزعة تمجيد الفرد الحاكم .

وبذلك تخلو الفلسفة من نزعة الشك والتحرر والابتكار ، وتظل تدور فى مدارات مرسومة لا تتجاوزها وإلا تعرضت للإضطهاد ، وقد يؤدى هذا إلى ضحالة الحياة الفكرية ، وجمود التأمل الفلسفى . وينعكس هذا الوضع على سائر جوانب الحياة فيميل الناس إلى الأفكار البسيطة السطحية ، ويبررون خضوعهم للغريزة دون التفكير بأدلة سوفسطائية ، أو أقوال غيبية ، ويعيش الأفراد ليومهم ولذواتهم دون مجتمعهم وتصبح الأنانية هى الفضيلة المثلى وترديد أقوال السلف هو العلم .

وعندئذ تفقد الفلسفة النظرة الشاملة والتفكير المتدفق وتنحصر فى اصطلاحات لفظية وتقديس لأفكار قديمة تفسر وفق مايرضى السلطة الجاهلة .

وقد حدث هذا فى فترات معروفة فى تاريخ الشرق والغرب ، حوصر فيها التفكير العقلى حصاراً شديداً مما أفقد الإنسانية فترة ثمينة من تاريخها كان من الممكن أن تحقق فيها تقدماً كبيراً لو أتيح فيها للعقل أن يمارس حقه فى التفكير المتصل ، فضلا عما أصاب الناس من تعاسة وشقاء فى تلك العصور المظلمة .

حركة التفكير الفلسفى :

مما عرضناه يتضح أن هناك درجات يرقى عليها الفكر الفلسفى حتى يصل إلى القمة التى يشرف منها على الوجود ، فيدركه فى نظرة كلية عقلية ، وهذه الدرجات هى :

١ — يبدأ التفكير الفلسفى بالتساؤل عن مدى صدق المألوف أو قصوره عن تحقيق رغبة الفكر الإنسانى فى الوصول إلى الحقيقة

٢ — يشك المفكر فى هذا المألوف ، ويؤدى به الشك إلى فترة تردد وحيرة يقف بها أمام هذا المألوف مكتشفاً ، كلما أمعن التفكير ، مايتعارض مع العقل وقد ينتهى به التردد إلى رفض هذا المألوف كلياً أو جزئياً .

٣ — يبحث المفكر عن الحقيقة ، وذلك بالارتفاع عن مشاغل الحياة اليومية إلى مواجهة مشاكل الوجود الكبرى ومحاولة اكتشاف طبيعتها الحقيقية .

٤ - يتمثل المفكر المشكلة فى داخله ، كيما يستطيع أن يحولها إلى عدد من الأفكار والرموز يستطيع العقل أن يتعامل معها ، ويعالجها بالمقارنة والفهم والفحص والتدقيق لأنها أصبحت من ذات طبيعته الذهنية .

٥ — ينتهى المفكر إلى نتيجة تفسر له غوامض المشكلة بعد وضعها فى تصور كلى جديد يختلف عن تصوره الأولى لها فيراها العقل فى صورتها الحقيقية فى ضوء علاقاتها المنطقية .

٦ — يحاول العقل أن يطبق ماوصل إليه من معرفة جديدة بالمشكلة على جزئياتها ، بحيث يحد من هذه الجزئيات التى تتصل بالواقع مايجعله يثق فى صحة استدلاله .

٧ — يسترشد المشرعون والعلماء بتلك النتائج فى التشريع والبحث العلمى وخاصة فى العلوم الإنسانية مايجعلهم يوجهون النظم الاجتماعية الوجهة التى تتفق وما انتهى إليه التفكير الفلسفى من تلك النتائج ،

٨ — يقوم صراع بين نتائج التفكير الفلسفى وبين ما ألفه الناس وينقسم المجتمع إلى فئتين كل منهما تناصر جانباً حتى يتم النصر للتفكير العقلى السليم فيخبر بناء المجتمع وتفكيره .

٩ — تأتى موجة جديدة من التفكير فتدخل فى صراع مع الموجة القديمة التى أصبحت تقليدية وتتوالى دورة الفكر مع طبيعة العقل فى التفكير المستمر المبتكر .

١٠ — قد يظهر مفكر عبقرى فى عصر من عصور الجمود ، ولكن عصره قد لايستفيد منه لتخلفه عنه ، ولكن تستفيد من عبقريته الأجيال التالية ، وذلك عندما تتهيأ ثقافة المجتمع لاستيعاب تلك العبقرية . ويعمل هذا العبقرى على تلخيص المراحل السابقة فى صورة جديدة تنسجم مع آخر صورة وصل إليها تطور الفكر الفلسفى أو ابتكار فكر جديد يتلافى تناقضات الفكر السابق ، ويكون دافعاً لمواصلة التفكير الفلسفى فى اتجاه جديد .

الفصل السادس

المبادىء العقلية

يدرس التفكير الفلسفى موضوعات عقلية مجردة من المادة ، كما قلنا، ولذلك يعتمد على العقل وحده فى عملية التفكير ، عن طريق الابتداء بقضية عقلية والتسلسل منها إلى ما يترتب عليها من نتائج ، وذلك مثلما يحدث فى علم الرياضة ، فنحن فى التمرينات الهندسية نبرهن على النتيجة بوساطة الاستنتاجات العقلية دون الاستعانة بأدوات القياس ، وذلك استناداً فى الرياضة إلى بديهيات رياضية واضحة الصدق بنفسها ، وفى التفكير الفلسفى اعتماداً على مبـــادىء عقليه ضرورية ، وقواعد للاستدلال ينظمها علم المنطق .

وكلا البديهيات الرياضية والمبادى العقلية هى مكونات العقل الرئيسية. وترجع إلى أصل مشترك .

ومن هذه المبادىء العقلية :

١ ــ مبدأ الذاتية : (Principle of Identity) :

وهو القول بأن الشىء نفسه (ا هو ا) ومعنى ذلك أن الشىء الواحد لا يمكن أن يتعدد ويبقى هو نفسه فى الوقت ذاته ، فالشىء يظل هو نفسه ، كما أن الشىء إذا كان هو نفسه ، فلا يمكن أن يكون شيئاً آخر فى نفس الوقت وبنفس المعنى ،

وصدق هذا المبدأ لازم بمجرد نطقه ، لأنه لا يأتى بحكم جديد غير مايتضمنه المنطوق نفسه ، إذ هو تكرار لحد واحد ، ولذلك لا يعد حكما معتمداً على أساس سابق ، لأن الحكم يستلزم التمايز بين الحد الأول والحـــد الثانى الموصوف به ، كما لو قلنا (ا هى ب) فهنا تمايز بين الحدين أتى بشىء جديد هو مطابقة الحد الأول لحد آخر غير نفسه .

ولكن مبدأ الذاتية (ا هو ا) حد واحد بسيط ، ليس هناك ما هو أبسط منه ، ولهذا فإنه لايقبل الشك ولاحتى المناقشة ، لأنه إذا لم يلتزم المتحادثان من أول الأمر بهذا المبدأ بان خالفه أحدهما معلنا أن (ا هى ا) فى الظاهر ، ولكنه يبطن أن (ا) الثانية هى (ب) أو (ح) أو (د) حسب مجرى الحوار ، فإنه حتما سيناقض نفسه وسينتهى إلى أن (ا) ليست شيئاً على الاطلاق .

ويطبق مبدأ الذاتية فى الاستدلال القياسى ، وهو استنتاج نتائج معينة من مبادىء عامة . ففى القياس مثلا نقول ما هو صحيح بالنسبة للنوع يكون صحيحاً بالنسبة لأفراد هذا النوع .

أما فى الاستنباط الرياضى ، فإن مبدأ الذاتية يتمثل فى الصورة « المساويان لشىء ثالث متساويان » وذلك لأن الشيئين اللذين يكون مقدار كل منهما هو نفس مقدار شىء ثالث ، فإن مقدار أحدهما يكون هو نفس مقدار الآخر .

٢ — مبدأ عدم التناقض : (Princible of hon Cohtra diction) :

وهو أن الشىء يستحيل أن يكون موجوداً وغير موجود فى وقت واحد من جهة واحدة وصيغته هى (الشىء لايكون ا ولا ا معا)وذلك عندما تكون (ا) الثانية غير مختلفة عن (ا) الأولى ، فيكون بينهما تناقض ، أى أن (ا) تنفى أن تكون هى نفسها وغير نفسها معا وفى نفس الوقت وبنفس المعنى . أى أن (ا) لاتتكرر بعينها وبغيرها معاً فى الوقت ذاته ، إذ بين الحدين تناقض فلا يصدقان معاً ولا يكذبان معاً ، فإذا صدق كون الشىء (أ) يكذب أن يكون نفسه (غير أ). فلا يمكن أن يسمى الشىء بأنه « أبيض وغير أبيض » أو « حى وغير حى » فى لحظة واحدة وكذلك لا يمكن أن يصدق القول بأن فلانا « مسلم وغير مسلم » أو «عربى وغير عربى » فى اللحظة نفسها وبمعنى واحد .

ومبدأ عدم التناقض هو الشكل المنفى لمبدأ الذاتية ، ومعنـــاه امتناع القول بالمتناقضين معافى آن واحد وعلى نفس الأساس .

ونحن نرجع إليه فى ما يتصل بالأحكام والاستنتاجات السالبة .

٣ ـــ مبدأ الثالث المرفوع (أو مبدأ الوسط المرفوع) :

ويعبر عنه بالصيغة « الشيء هو إما (ا) أو (لا ا) أى أنه لايوجد بين هذين الأمرين وسط بينهما ، فلا بد أن يتصف الشيء بإحدى الصفتين الموجبة أو السالبة ، ولا ثالث لهما . فمثلا إذا قلنا (إن الشيء إما أبيض أو لا أبيض) . فمعنى ذلك أننا قسمنا جميع الصفات اللونية إلى قسمين لا أكثر .

ونتيجة لذلك فإن أى شيء إنما يدخل ضمن الأشياء البيضاء ، وإما أن يكون بين الأشياء غير البيضاء (أياً كان لونها) ولا يمكن أن يدخل ضمن قسم ثالث يكون وسطاً بينهما ، لأن هذا القسم الثالث مرفوع (أى غير موجود) .

فمبدأ الثالث المرفوع يرجع إذن إلى مبدأ عدم التناقض فى صيغة شرطية منفصلة. وبذلك يكون كلا مبدأى الثالث المرفوع وعدم التناقض يرجع إلى مبدأ الذاتية.

٤ ـــ مبدأ العلة الكافية :

وهو الذى ينص على أن لكل شيء سبباً . وأنه لاشيء يحدث عفواً ، أى أن كل ما هو موجود له علة أوجدته ، والعلة هى ما يحكم العقل بأنها تكفى لتفسير وجود الشيء . ويتضمن مبدأ العلة الكافية الحكم بأن كل شيء قابل لأن يفسر بالعقل ، أى قابل لأن يفهم . وليس المراد بذلك أن العقل قادر على الفهم، وإنما المراد أن الشيء قابل لأن يكون فى حدذاته معقولا أى مفهوما. فمثلا إذا توفرت للعقل فى وقت ما معرفة كافة المقدمات والعوامل والظروف المحيطة بوجود الشيء، فحينئذ يكون وجود الشيء أو الظاهرة نتيجة حتمية لتلك العوامل والمقدمات والظروف فى نظر العقل .

وعدم فهم أى شيء فى الظاهرة لايكون إلا بسبب عدم الإحاطة بجميع الظروف التى تكون كافية لإيجاد النتيجة أو الظاهرة، وإن كان العقل لم يدركها بعد.

وإذن يكون فهم أى شيء هو إلمام العقل بعلته الكافية ، ويكون تفسير أى شيء هو إظهار هذه العلة .

ومن هذا يتضح أن مبادىء العقل الأساسية هى الحقائق الأولية الرئيسية الواضحة بنفسها والتى يعتمد عليها كل تفكير سليم . وتمتاز بأنها عامة وضرورية من الناحيتين الذاتية والموضوعية .

فعموميتها من الناحية الذاتية معناها وجودها فى كل عقل إنسانى .

وعموميتها من الناحية الموضوعية معناها أنها تصدق على كل شىء موجود فى عالم الواقع .

أما ضرورية هذه المبادىء من الناحية الذاتية فمعناها أن التفكير السليم مستحيل بدونها وضرورتهـــا من الناحية الموضوعية معناها أنه لا يمكن أن يوجد فى الواقع شىء مناقض لها .

ويمكن التفرقة بين التفكير الخرافى والتفكير العقلى السليم عن طريقة مطابقة كل منهما لهذه المبادىء من الناحية الصورية والمادية أى من ناحية صورة الفكر ومحتواه .